ازمة الأديب في المجتمع

بقلم محيي الدين محمد

شيئان مزعجان ومروعان يظن الاديب انهما يحطمان وجوده ، ويمزقانه أشلاء .. هما وطأة الوضع الاجتماعي، والشعور العنيف باللاحرية ..

الاثنان متداخلان ومتناقضان . متداخلان بمعنى انهما لازمان معا لوجود الكاتب القوي المتفرغ المكثر ، ومتناقضان بمعنى ان وطأة الوضع الاجتماعي لاتؤثر في الاديب الا من داخله « وسوف نلاحظ ان هذا المعنى شكلي محض » ،في حين ان اللاحرية ، وضع تختاره الدولة كي تجمد الثورة ، وتخمد النقد والمعارضة ، وهي لاتؤثر في الاديب الا من خارج ، أي في اللحظة التي يستحيل فيها وعيه الى نشاط اجتماعي غايته الوصول الى الاخرين والتأثير فيهم .. وكل مظان الاديب بفظاعة هذين العاملين وشدة تأثيرهما المدمر راجعة الى أنه يتعمد الخلط فيضع دلالة كل منهما في مكان الاخرى : أي انه يظن اللاحرية وضعا داخليا ، وان الحالة الاجتماعية تؤثر في خارج الاديب ، أي من حيث يلتقي بالاخرين ، كتابة وخطابة ..

والامر الحقيقي هو ان العاملين يؤثران داخليا وخارجيا نفسيا وسلوكيا ، ولكنهما يختلفان ويتباعدان في لحظة واحدة هي اللحظة التي يقرر فيها الاديب أن عزلته لم تصبح ملكه وان عليه عبء انقاذ البشر الذين يعانون معاناة نفسها .

ليست الحرية وضعا خارجيا محضا ، وليس الوضع الاجتماعي كذلك ، اذ يظل بامكان الكاتب الحر دوما ان يمارس حريته ، وان يرفض الحواجز والاطر ومغريات السلطة ، ويظل بامكانه ايضا أن يلغي حكاية الظروف السيئة التي يعاني منها ، ويعاني جيله منها ، وان يوصل الرسالة التي ينبغي عليه ان يوصلها ..

فأية قوة هي هذه التي تحقق تلك الفورة الداخلية العارمة ، في حين يظل الخارج باستمرار ، ديمومة متصلة من عمليات الكبت لقوى الاديب ونشاطاته .؟ أي شيء هو هذا الميزان الذهبي الذي لايتأثر بالوضع الاجتماعي ، ولا يتأثر بالطغيان ؟!

ان الخارج لا يعطل الاديب نهائيا ، كما ان الداخل لا ينقذ الاديب نهائيا ، وليس خطأ ان نظن ان مقدارا مناسبا من الحرية الخارجية ، ومقدارا مناسبا من الدخل المادي، يهيئان للاديب ارضية قوية وخصبة . لكن المطلوب ليس معرفة الظروف المثالية التي يتمكن الاديب ضمنها من الانتاج ، انما السؤال هو : هل يستطيع الاديب ان يمارس التزامه ، بدون خيانات ، في ارض لاتحكمها الحرية ، وفي مستوى مادي تعس للغاية .؟ هل يستطيع الاديب ان يتجاوز ظروفه .؟

لقد عينا حتى الان شيئين منفصلين وقلنا انهما يسممان وجود الاديب : اللاحرية ، وسوء الوضع الاجتماعي ... ولكنهما ـ بعد السؤال السابق ـ يصبحان في الحقيقة شيئا واحدا .. فما هي الحرية اذا لم تكن « القدرة على الانفصال عن وضع ما ، لاتخاذ رأي فيه .. (١) »

تفترق الحرية الداخلية هنا ، عن محدودية الحرية العامة التي تسمح بها السلطات والتقاليد ووعي الناس ، بل ويصبح من المحتم ان يصطدم الاثنان ، وان ينشأ تبعا لذلك تحول فكري جديد : حرية الكاتب في ممارسة وعي نظيف وسلوك ناقد وجريء ، وحرية السلطة في الحد من حرية الكاتب ..

الحرية الداخلية هي التمرد على الاوضاع الجامدة التي تحاول تكميم فم الكاتب بالارهاب ، وبالسجن ، والتشريد والتنكيل مرة،والاغراء والاغواء مرة اخرى، والانقياد للسلطة حيث لا اغواء ولا تهديد ، الا ضياع الشخصية مرة ثالثة ، حرية الاديب الداخلية هي اولا ، الرفض التلقائي لكل دعوة بالانتصاح ، وهي ثانيا ، الالتزام الواعي بقضية الشعب ، وهي ثالثا ، الاعلان عن المساوىء والشرور ، وطرح الجواب بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة ، بصرف النظر عن الوضع النفسي والاجتماعي .

فهل يستطيع الاديب حقا ان يتجاوز عن سوء الوضعين الاجتماعي والفكري ، ليعلن ـ رغم تعسف السلطة ـ عن قضية يراها أخطر القضايا واشدها اهمية ، وتراها السلطة اشد القضايا بلبلة وابتعاثا على الارتباك .؟ هل يمكن للاديب ان ينتج اعمالا فنية على مستوى رائع وجديد وعميق اذا كانت حياته الاجتماعية أقل بكثير عن المتوسط .؟!

لاشك ان الاديب بشر كالناس ، يود أن يكون سعيدا ، ويود ان يمتلك تليفونا خاصا ، وجهازا للتليفزيون ، وحجرة استحمام من القيشاني الاصلي ، ويود ان يمتلك عربة جميلة ، وان يتسع له الوقت لكي يكتب ويقدم شيئا مرموقا ، والاديب يعلم ان وقته مضيع بين العمل الخارجي الذي يستنزف طاقاته البدنية والفكرية ، وبين قراءاته الخاصة ، وهو يدرك جيدا مدى طغيان العمل وأكل العيش، على انتاجه الخاص ، وهو واثق تماما انه سيكون أغزر أنتاجا واعمق فكرا في المستقبل ، لو امكن لجهة ما ان تتولى عنه عبء حياته الخاصة ، بعملها ومسئولياتها ، وهو يحلم دوما بهذا « السلطان » العادل الذي عليه ان يحيي مواته ، وان يقدم للعالم امكانياته الفنية الراقدة في اعماقه .. ولا شك ان هذا الحلم جميل ورائع ، ولكننا لم ننس اننا حلمنا قبل ذلك ، وطيلة التاريخ بالمدن الفاضلة واليوتوبيات ، وانتهينا الى قرار صعب بالنسبة لكل تفكير مثالي ومجرد ..

بيد ان سؤالا وحيدا يثار هنا ، سؤالا وحيدا وعلى غاية من الاهمية : اذا افترضنا ان الاديب يعاني بؤس حياة

---

(١) جان بول سارتر « المذهب المادي والثورة » ص ٢٢ ـ ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي ـ منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر .

اجتماعية شديدة الوطأة ، مع شعوره الجارف بالحرمان من كافة المتع والسعادات الصغيرة التي يمارسها الاثرياء والسادة ، فهل نغفر له صمته وسكوته ، او هل نستطيع أن نوافق على تبريره الذي يسوقه ، وخلاصته ان الوضع بطحنه ويخلخل التزاماته ، وان عليه ان يبحث عن مستوى أرقى من حياته الراهنة .؟!

سوف نقرب الامر بمثال ملائم : مدينة اسمها « هاكاجاوا » يحكمها سلطان باطش لا يعرف العدل ولا يفهم حرية التعبير ، ولا يسلم بجدوى الفن والكلمة والفكر .. يعيش في هذه المدينة اديب شاب . غير متزوج ، يعمل في مطحن للغلال ، من السادسة صباحا حتى الرابعة مساء . توفى ابوه ، وهو يعول اسرته البالغة ثمانية اشخاص ، نصفهم في المدرسة ، والنصف الاخر مقيم دائم في المنزل ..

هذا الاديب يلاحظ الوضع : انه يقرأ الجرائد ، ويحادث الناس ، ويدرس الظواهر والخبايا ، ويفطن الى الامور ، وقد توصل بعد كل ذلك الى قرار بشأن هذا السلطان ، وبشأن النظام الذي يحكم وطنه .. انه في هذه اللحظة ،اي في لحظة وعيه وادراكه ، ليس حرا بعد ، فالحرية الداخلية ليست نمطا في التفكير .. ابدا ، انها خطوة ضرورية الى خارج .. أي انها لاتكون كذلك الا في اللحظة التي يشاء فيها هذا الاديب أن يغير مايقهره .. وانه ليعلم تماما بكل مايتبع حركته الى الخارج من شرور ، فلا اقل من السجن والتشريد ، والبطش بالاسرة ، والعذاب ، ثم الموت ...

في مثل هذه الظروف ، يمكن للاديب ان يحتج بوضعه الخاص : انا حر .. ذلك صحيح ، ولكنني لست حرا في تعذيب اخوتي واسرتي .. وما ذنبها .. حتى اجر عليها الخراب والتشريد ..؟!

وبعبارة اخرى ، هل تستحق هذه القضية ، كل هذا الاستشهاد .؟

نلاحظ ان الامر قد تحول هنا الى مسألة اخرى اخلاقية تماما ، وذلك لان هذا الاديب في الحقيقة ليس حرا ، مادام عبء الوضع اشد عليه وطأة من شعوره بالتزامه .. طريقان لا ثالث لهما يتألقان في ذهن هذا الاديب ، أحدهما هو : اسكت ، فلست بطلا .. والاخر : اتكلم ، كيما احقق حريتي.

وهذا المثال نفسه يمكن تطبيقه بقليل من التحريف لو اردنا طرح مسألة سوء الوضع الاجتماعي للاديب ، والمثالان يؤديان الى موقف واحد يعلن عنه الاديب ، وهو : هناك .. في الخارج ، تقع قوة اخرى اكثر عتوا تمنعني من الكتابة ومن الانتاج ، هي حكم السلطان في موقف ، والرغبة بالسعادة والامان وطرح الفقر جانبا ، في الموقف الاخر ..

فما معنى ان يتجاوز الاديب عن هذه القوة ، وما الذي يؤدي اليه هذا التجاوز الذي يملك في شكله الفردي ، ملامح الغشامة والاستشهاد .؟!

قد يلاحظ الانسان العادي في مدينة مثل « هاكاجاوا » سوء الوضع السياسي والاجتماعي بقليل من الفطنة ، وقد يتكلم أحيانا عن ضرورة التغيير ، ولكنه ليس ملتزما بذلك ، اذ ليس هناك فارق سلوكي مؤكد وهام بين من يعرف او يجهل ، فهو في الحالين ليس قابلا ان يخلق من قضية الحرية معنى لوجوده .. واذا لم يحدث ذلك النوع من السوق والدفع الفكريين ، فقد تظل الرغبة في التغيير ، مجرد امنية حالمة في ذهن الرجل العادي ، مهما كان الضغط السياسي والاجتماعي مروعا « ولا بد ان نلاحظ ان الثورة اذا لم يتهيأ لها الذهن القائد ، او الانسان البطل لمثال ، لابد ان تنتكس دفعة واحدة وتموت » .

الاديب طاقة ذات حدين ، احدهما مغروس في الواقع الاني ، والاخر مدفون في المستقبل . فعلى اساس من هذه النظرة المزدوجة ، والحادثة من التطابق الذهني للمثال « المستقبل » على الراهن « الواقع » ، يحاول الاديب باقصى ما تسعه طاقاته أن يغير ويبدل ويطور .

هذه الرؤية الكاشفة ليست التزاما بمصطلحه اللغوي انما هي ارتباط ميكانيكي بالوضع ، كما ترتبط الاقمار التابعة ، بالافلاك العظيمة .. ويستحيل ان يتهرأ هذا الرباط او يتمزق في أي ظرف من الظروف ، وتحت أي لون من الوان الضغوط والعذابات ، فالاديب مدفوع الى ان ينتج وان يعترف وان يمارس سلوكا واعيا ، مدفوع الى ذلك باكثر من سبب ، فما الذي يلزمه في الحقيقة بالكتابة وماذا يعني بها ، ان لم يكن واعيا ان كتابته مقصود بها تغيير اذهان الاخرين ، التمهيد بتطويرهم ؟

واذا كان الوضع بنوعيه : الفقر المادي ، والحالة الفكرية في الوطن ، يسهم في تكبيل الاديب وعرقلة فكره ، فان حريته الخاصة تدفعه الى التخلص من كل هذه الروابط والسلاسل ، وتؤلف حالة نفسية خاصة ، تعلو ـ مؤقتا ـ على الواقع الاجتماعي ، بل وتسلبه وجوده ، وتعطيه هذه المزية النادرة وهي القدرة على تفتيت الوضع من جميع جوانبه ، وتسليمه نظيفا وشيقا ومعقولا الى الاخرين .. فالالتزام هنا عملية هي غاية مايصل اليه الاستغناء عن

ـ التتمة على الصفحة ٧٤ ـ

الى العرب في كل مكان ..
لكي يتعرفوا بحق الى الجزائر المجاهدة
ويتتبعوا مراحل كفاحها البطولي :

نقدم هذا الكتاب

الجزائر العربية

ارض الكفاح المجيد

تأليف الدكتور احسان حقي

اول كتاب يدبج قلم عربي ليحمل
الى القراء العرب اخبار اشقائهم
الجزائريين الابطال الذي اثاروا
اعجاب العالم باجمعه ـ مع مجموعة
كبيرة من الصور الرائعة التي لم تنشر بعد !

٣٢٠ صفحة من القطع الكبير ثمن ٤٠٠ ف.ك ٥٠٠ ق.ب
منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

أزمة الاديب في المجتمع

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

المطالب الحقيرة للجسد والشعور ، وغاية مايعبر عنه الفكر من لا مبالاة بالسلطة والتقاليد والاخلاق العامة . الالتزام معاناة وتعبير عن هذه المعاناة ، وتخلص منها في الوقت نفسه .

الذين يؤمنون ببطش الظروف بفكر الاديب ونشاطه الذهني ، يربطون بين حالة الفكر اثناء ممارسة التفكير في ظرف اجتماعي معين ، وبين تاثير ذلك في حالة الكتابة ، ويخلصون من ذلك الى استحالة أن يصبح الاديب محايدا ـ ذهنيا ـ عن الظرف الاجتماعي الذي يعيشه ، لان الذهن في الحالين هو عنصر الاشتراك . وذلك خطأ محض ، كما نتصور الذي يتنسم عبير وردة ، انه ممتنع مؤقتا عن التنفس ، في حين يدل واقع الامر ان العمليتين « التنفس ـ التنسم » مشتركتان ومتحدتان بالمعنى الظاهري ، لان الانف هو عنصر المشاركة ، مرتبطا بعملية دفع الهواء الى الداخل ، ومنفصلتان ايضا بمعنى أن بنية الظاهرتين مختلفتان .

وهكذا بالنسبة الى ذهن الاديب ، فالواقع ان عملية التفكير يمكن ان تصبح حيادية تماما ، بمعنى انها تدرك فعلا ظروف الكاتب المادية والنفسية ، ولكنها ، اذ يستحيل عليها ان تظل مرتبطة في ديمومة متصلة بهذه الظروف ، تتخلى ـ مؤقتا ـ عنها لتمارس نشاطها الاخر . ويجب أن نلاحظ ان هذا النشاط الاخر ليس بالضرورة ادبا ونقدا، اذ قد يكون لعبة من العاب النرد او الشطرنج ، و كرة القدم او مجرد ملاحظة الاخرين .

ولا ينبغي ان نظن حياد الذهن عملية ميكانيكية محضة، انها مجرد امكانية موجودة ، يستحيل ان تمارس عملها اذا لم تتهيأ الارادة اللازمة ، ووعي الكاتب بحريته الذاتية . . لقد لاحظنا ان الذهن يحتوي امكانية ان يصبح حياديا بالنسبة للظروف التي يحيا فيها الكاتب ، ولكن الذهن هو مطية المشتغل بالنقد والدراسات والعلم ، فما هو حكم المبدع الذي يشغل الذهن فيه وظيفة المنسق والمبوب والملاحظ فقط ؟

المفروض ان كتابة المبدع انفعالية تقريبا ، مع قيمة دنيا للعقلانية والمنطق ، مهمتها ان تربط الظواهر ، وان ترتب الاحداث وان تعطى لحمة الواقع . . والانفعال حدث تابع باستمرار للظاهرة او الملاحظة الخارجية ، او الاستبطان الداخلي والتأمل ، وهو بتأثير من هذه التبعية اكثر اشتراكا بالواقع وبالظروف من العمل الذهني ، وبالرغم من ذلك لايستطيع المبدع الا ان يفيض وينتج ، لان فيضه يملك مقدارا اكبر واضخم من التلقائية والعفوية ، وهما يوازيان هنا القدرة على تخطي الظروف عند الدارس او الناقد . . ففي انفس الظروف التي هيأها مجتمع لانسان ، استطاع جوركي ودوستويفسكي وكافكا ورامبو وشكسبير ان يقدموا للعالم اروع واصفى واعمق الاعمال الفنية ، واستطاع ليرمونتوف ولوركا وميللر ، تحت اسوأ النماذج من الانظمة الحاكمة واشدها دكتاتورية وكراهية للفكر ان ينتجوا اعمالا مثل : بطل من هذا الزمان ، ماريانا بينيدا ، ساحرات سالم . .

الاديب مغموس في وسطه بكل مشاعره ، ولكنه ارقى من هذا الوسط بجزء من ذهنه . جزء شديد المراس ، وفائق الاهمية ، ومتخط دوما لكل ما من شأنه ان يعطل الملكات المختزنة في بقية الذهن او المشاعر ، ولعل هذا الجزء ان يكون متصلا بالمثال في الانسان . هذا المثال الرائع والنادر الوجود .

اخيرا . .

ليست هناك قوة في الارض ، لا هي قوة الافراد ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، تستطيع ان تمنع الاديب من التعبير والقول ، وممارسة هذه العملية التي هي معنى وجوده . .

واذا استطاعت قوة ما أن تخرس الاديب ، فان ذلك يبقى جبنه الخاص ، مادام غير سجين بعد ، وغير ميت بعد . .

وسوف تظل « هاكاجاوا » مدينة ميتة ، اذا لم يتقدم ذلك الاديب الذي يعمل في مطحن الغلال ، ويكتب ويصارح ويعلن وينقب ويجوس ويكشف ويعري كل مايقع تحت بصره وفي مستوى ذهنه من مخاز والام وشكاوي . .

فهكذا فقط تستطيع هذه المدينة ان تقول : ها انذا اتطور واحيا واتقدم . .

القاهرة — محيي الدين محمد

صدر حديثا عن :

دار الثقافة ـ بيروت

٥٠٠ ابن الرومي ـ روفون جست ترجمة الدكتور حسين نصار

٣٥٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة ـ فرنكلين اشد ترجمة مهيبة مالكي الدسوقي

٣٠٠ الادب المسرحي ـ للدكتور محمد كامل حسين

٥٠٠ اشعار الخليع ـ الحسين بن الضحاك ـ تحقيق عبد الستار فراج

٥٠٠ قصة قلب (ديوان شعر) ـ محمد احمد محجوب

٥٠٠ ديوان القطامي ـ تحقيق الدكتور ابراهيم السمرائي واحمد مطلوب

٥٠٠ مضاهاة امثال كتاب كليلة ودمنة بما اشبهها من اشعار العرب ـ تحقيق الدكتور محمد نجم

٣٠٠ ديوان الرصافي البلنسي ـ تحقيق الدكتور احسان عباس

تطلب هذه الكتب مع سواها من دار الثقافة ومكتبتها
ص.ب ٥٤٣ ـ تلفون ٢٣٠٥٦١ ـ ميدان رياض الصلح

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر